المبحث الثالث
ضوابط التعددية السياسية

ذهبنا ـ كما سبق ـ إلى أنه لا مجال في الفقه الإسلامي للتعددية السياسية المطلقة ، وأن الذي يجيزه الإسلام تلك التعددية السياسية ، التي تكون في إطار الأصول الثابتة من القرآن الكريم والسنة.

وحتى تكون التعددية السياسية نموذجًا في طريق تحقيق الأهداف والغايات ، التي أنشئت من أجلها ، وتصبح تعددية حقيقية تنشد المصلحة العامة ، كان لا بد أن تلتزم بثوابت لا تتعداها ، وتتقيد بضوابط لا تتجاوزها ؛ وهذه الضوابط تتمثل في :

١ ـ أن تكون التعددية السياسية مؤمنة تمام الإيمان بالعقيدة الإسلامية ، والشريعة الإسلامية المنبثقة عنها : قال الله تعالى : ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ﴾ [آل عمران :٨٥] ، فلا يسمح أن تتحزب على أصل بدعي يخالف أصول السنة والجماعة ، أو بدع جزئية كثيرات[١].

٢ ـ أن يكون الالتزام بالحق والمصالح العامة للأمة هو البديل عن الالتزام الحزبي الذي تقرره الأحزاب العلمانية : فالذي يحكم القرار ، والاختيار ، والتوجه هو الحق والمصلحة ، وليس مجرد الانتماء إلى الحزب ، أو الانتساب إلى تكتل سياسي بعينه ، فهذا يمثل في ميزان الشرع جريمة منكرة ، وهو نوع من

(١) أبو فارس : مدى شرعية الانتماء (ص : ٣٩) ، الصاوي : التعددية السياسية (ص : ٥٧).

العصبية الجاهلية ، قال ﷺ : « مَنْ نَصَرَ قَوْمَهُ عَلَى غَيْرِ الحَقِّ ، فَهُوَ كَالبَعِيرِ الذِي رُوِي ، فَهُوَ يَنْزِعُ بِذَنَبِهِ »[١] .

وقد نبه الدكتور يوسف القرضاوي إلى جملة من أخلاقيات التحرر من التعصب للجماعة أو للحزب ، فقال : « ومن هذه الأخلاقيات : أن ينظر إلى القول لا إلى قائله ، وأن تكون لديه الشجاعة لنقد الذات ، والاعتراف بالخطأ ، والترحيب بالنقد من الآخرين ، وطلب النصح منهم ، والاستفادة مما عند الآخرين من علم وحكمة ، والثناء على المخالف فيما أحسن فيه ، والدفاع عنه إذا اتهم بالباطل أو تطاول عليه أحد بغير حق »[٢] .

٣ ـ التزام السمع والطاعة لدى ولي الأمر باعتباره ممثلًا لكافة الأمة وعدم منازعته أو شق عصا الطاعة : « إِلا أَنْ تَرَوْا كُفْرًا بَوَاحًا »[٣] ، قال تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ ﴾ .

[النساء :٥٩]

٤ ـ الإقرار بالحاكمية لله تعالى في جميع نواحي الحياة وجزئياتها ، وتفرده بذلك سبحانه عما سواه : قال تعالى : ﴿ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ ﴾[يوسف :٤٠] ؛ وأن تكون غايتهم إقامة القانون الإلهي ، والمحافظة على استمرار تطبيق الشريعة الإسلامية في كل شؤون الحياة ، قال تعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْاْ

---

(١) أخرجه أبو داود : السنن (كتاب الأدب ، باب في العصبية ٤/ ٣٣١ ح ٥١١٧) ، والحديث صحيح ، الألباني : صحيح سنن أبي داود (٤/ ٣٣١ ح ٥١١٧).

(٢) القرضاوي : الصحوة الإسلامية بين الاختلاف المشروع والتفرق المذموم (ص : ٢٢١).

(٣) سبق تخريجه ، وهو صحيح.

عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ﴾ [الحج :٤١] .

٥ ـ محاربة الداعين إلى إقصاء الشريعة الإسلامية عن واقع الحكم ، دون مهادنة أو مداراة ، وعدم موالاة أي راية منحرفة عن منهج الله ، قال تعالى : ﴿ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ [التوبة :٢٣] .

يقول الشيخ سعيد حوى ـ رحمه الله : « فلا ولاء في الإسلام إلا على أساسه النظري والعملي ، وكل آصرة أخرى يعطي الناس ولاءهم على أساسها آصرة باطلة ، والولاء على أساسها باطل ، ولا يكون الإنسان معها من المؤمنين ، فالله يأبى علينا أن نعطي إلا بجامع الإيمان والإسلام »[(١)] .

٦ ـ العمل على تحقيق المصالح العامة للأمة ، ودفع المفاسد عنها ، وإفراغ الجهد في ذلك : وأن تكون هذه المصالح بمثابة الإطار الجامع الذي يتفق الجميع على دعمه ، وهم في هذه الدائرة نسيج واحد وحزب واحد ، وهم يد على من سواهم ، ولا يمنع التفاوت فيما وراء ذلك من الأساليب من تماسك كافة هذه الفصائل والتقائها جميعًا في هذا الخندق الجامع[(٢)] .

٧ ـ المحافظة على وحدة الأمة المسلمة : إذ تمثل الوحدة صمام الأمان في علو شأن الأمة وقوة شوكتها ومجابهتها لأعدائها ، قال تعالى : ﴿ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ ﴾ [آل عمران :١٠٣] ، فدون ذلك تشرذم الأمة وذهاب ريحها قال تعالى : ﴿ وَلَا تَنَٰزَعُوا۟ فَتَفْشَلُوا۟ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ﴾ [الأنفال :٤٦] .

٨ ـ إحسان الظن بالآخرين ، وخلع المنظار الأسود عند النظر إلى أعمالهم

---

(١) حوى : جند الله ثقافة وأخلاقًا (ص : ١٧٣).

(٢) أبو فارس : التعددية السياسية (ص : ١٠) ، الصاوي : التعددية السياسية (ص : ١١٦).

ومواقفهم : فلا ينبغي أن يكون سلوك المؤمن واتجاهه قائمًا على تزكية نفسه واتهام غيره ، وهذا الأمر يعد من المبادئ الأخلاقية المهمة في التعامل بين الإسلاميين ، فالمؤمن ـ كما قال بعض السلف ـ أشد حسابًا لنفسه من سلطان غاشم ، ومن شريك شحيح ، فهو أبدًا متهم لنفسه لا يتسامح معها ، ولا يبرر لها خطأها ، يغلب عليه شعور التفريط في جنب الله ، وهو في الجانب المقابل يلتمس المعاذير لخلق الله ، وخصوصًا لإخوانه ، والعاملين معه لنصرة دين الله ، فهو يقول ما قال بعض السلف الصالح : ألتمس لأخي من عذر إلى سبعين ، ثم أقول : لعل له عذرًا آخر لا أعرفه.

إن سوء الظن من خصال الشر التي حذر منها القرآن والسنة ، فالأصل حمل المسلم على الصلاح ، وألا تظن به إلا خيرًا ، وأن تحمل ما يصدر منه على أحسن الوجوه ، وإن بدا ضعفها ، تغليبًا لجانب الخير على جانب الشر ، والله تعالى يقول : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجْتَنِبُواْ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ ﴾ [الحجرات :١٢] ، والمراد ظن السوء الذي لم يقم عليه دليل حاسم[(١)].

٩ـ التناصح والتواصي بالخير : وهذا من لوازم التعددية السياسية الإسلامية ، حتى تكون الأمة قوية موحدة لا تفرقها الوسائل المتباينة في خدمة الإسلام ، والله تعالى يقول : ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ﴾ [العصر :٣] ؛ ويقول النبي ﷺ : « **الدِّينُ النَّصِيحَةُ** »[(٢)].

وكذلك ينبغي احترام الرأي المخالف ، وعدم الإنكار على الآخرين ، مهما

---

(١) القرضاوي : الصحوة الإسلامية بين الاختلاف المشروع والتفرق المذموم (ص : ٢٢٣ ، ٢٢٤).

(٢) أخرجه مسلم : الصحيح (كتاب الإيمان ، باب بيان أن الدين النصيحة ١/ ٧٤ ح ٥٥).

اختلفوا معه في الفروع الاجتهادية ، فلكل مجتهد نصيب ، إذ الإنكار والتشنيع عليهم وإيذائهم بذلك يورث التفرق والاختلاف ، ومن هنا كانت دعوة الإمام الشهيد حسن البنا ـ رحمه الله ـ للعاملين في حقل الدعوة إلى التسامح في المختلف فيه فقال : « نتعاون فيما اتفقنا عليه ، ويعذر بعضنا بعضًا فيما اختلفنا فيه ».

١٠ـ الحوار بالتي هي أحسن : وهذه من الدعائم الأساسية في أدب الاختلاف ، وهو ما أمر الله تعالى به في كتابه حين قال : ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴾ [النحل :١٢٥] ، فالقرآن يطلب اتخاذ أحسن الطرائق وأمثلها للجدال ، أو الحوار حتى يؤتي أكله ؛ ومن هذه الطرائق أو الأساليب : أن يختار المجادل أرق التعبيرات وألطفها في مخاطبة الطرف الآخر ، ولهذا استخدم القرآن في مخاطبة اليهود والنصارى تعبيرًا له إيحاؤه ودلالته في التقريب بينهم وبين المسلمين ، وهو تعبير « أهل الكتاب» أو « الذين أوتوا الكتاب».

ومن أساليب الحوار بالحسنى : التركيز على نقاط الالتقاء ، ومواضع الاتفاق بينك وبين من تحاوره ، وهو أسلوب قرآني ، قال تعالى : ﴿ وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْ ۖ وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمْ وَٰحِدٌ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴾ [العنكبوت : ٤٦] ؛ فإذا كان هذا موقف المسلم ممن يجادله من أهل الكتاب الذين يخالفونه في عقيدته ، فكيف ينبغي أن يكون موقفه من أخيه المسلم؟.

إن الكلمة العنيفة لا لزوم لها ، ولا ثمرة تجتنى من ورائها ، إلا أنها تجرح

المشاعر ، وتغير مودة القلوب ، قال الشاعر :

إن القلوب إذا تنافر ودها مثل الزجاجة كسرها لا يشعب

إن حسن اختيار بعض الجمل أو العبارات المناسبة في بعض الأحيان ، يحل مشكلات ويفض اشتباكات ؛ وهذا ما يحسن بالدعاة والمفكرين ، والعاملين للإسلام أن يحرصوا عليه ويدققوا فيه[١] .

١١ـ نبذ الخلاف والفرقة ، والبعد عن التباغض والشحناء : فالاختلاف في الفروع الاجتهادية لا يوجب التخاصم والكراهية ، قال تعالى في وصف المؤمنين : ﴿ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴾ [المائدة :٥٤] ؛ وقال ﷺ : « **الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ لا يَظْلِمُهُ ، وَلا يَخْذُلُهُ ، وَلا يَحْقِرُهُ ...** »[٢] ؛ وكذلك إزالة الحسد ، فهو الذي يحمل على صاحبه على اتباع هواه ، ويجعله يتكلم فيمن يحسده ، ولله در القائل :

لله در الحسد ما أعدله بدأ بصاحبه فقتله!

وعدم الحسد ، والإحسان إلى المسلمين هو الأمر اللازم لتحقيق النصرة بين المسلمين[٣] ؛ وهذا هو الذي أمر به النبي ﷺ في قوله : « **مَا مِن امْرِئٍ يَخْذُلُ امْرَءًا مُسْلِمًا فِي مَوْطِنٍ يُنْتَقَصُ فِيهِ مِنْ عِرْضِهِ ، وَيُنْتَهَكُ فِيهِ مِنْ حُرْمَتِهِ ، إِلا خَذَلَهُ اللهُ تَعَالَى فِي مَوْطِنٍ يُحِبُ فِيهِ نُصْرَتَهُ ، وَمَا مِنْ أَحَدٍ يَنْصُرُ مُسْلِمًا فِي مَوْطِنٍ يُنْتَقَصُ فِيهِ مِنْ عِرْضِهِ ، وَيُنْتَهَكُ فِيهِ مِنْ حُرْمَتِهِ ، إِلا نَصَرَهُ اللهُ فِي مَوْطِنٍ يُحِبُ**

---

(١) القرضاوي : الصحوة الإسلامية بين الاختلاف المشروع والتفرق المذموم (ص : ٢٤٥ – ٢٥٢).

(٢) أخرجه مسلم : الصحيح (كتاب البر والصلة ، باب تحريم ظلم المسلم وخذله واحتقاره ٤/ ١٩٨٦ ح ٢٥٦٤).

(٣) الياسين : ضوابط العمل الإسلامي (ص : ١٠٢).

فِيهِ نُصْرَتَهُ »[١].

فينبغي على العاملين في الأحزاب السياسية أن يتقوا ذلك ، وأن يحسنوا في أعمالهم وأقوالهم ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً.

١٢ـ أن تنتهج الأحزاب السياسية أسلوب الوسطية في أقوالها ، وأعمالها ، وأحوالها ، دون إفراط أو تفريط : فمن مقاصد الدين الإسلامي بناء المجتمع المسلم الوسط ، وإن الغلو أو الجفاء يخالف كتاب الله وسنة نبيه ﷺ ، فدين الله تعالى بين الغالي والجافي ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ﴾ [البقرة :١٤٣] ، وليس معنى الوسط البرود وتمييع القضايا ، والتسويف في القيام بالواجبات ، وهذا خطأ ، فلا بد من أخذ الكتاب بقوة ، لكن الوسط أخذ أمر الله وأمر رسوله ﷺ حبًّا وتسليمًا وانقيادًا ، كما أراد الله ورسوله ﷺ بلا زيادة ولا نقص[٢].

واتباع المنهج الوسط دعامة في التعددية السياسية لتقريب الشقة وإزالة الجفوة بين الداعين للإسلام ؛ ويعتبر أيضًا من أهم أسباب الوفاق والتقارب بينهم : تجنب التنطع في الدين ، وهو ما أنذر النبي ﷺ أصحابه بالهلاك فيما رواه عنه ابن مسعود ﷺ قال : « هَلَكَ الْمُتَنَطِّعُونَ » قالها ثلاثًا[٣] ؛ سواء كان هذا القول إخبارًا عن هلاكهم ، أم دعاءً عليهم[٤] ؛ والمتنطعون كما قال الإمام النووي ـ رحمه الله : المتعمقون الغالون ، المجاوزون الحدود في أقوالهم

---

(١) أخرجه أبو داود : السنن (كتاب الأدب ، باب من رد عن مسلم غيبة ٤/ ٢٧١ ح ٤٨٨٤) ، والحديث حسن ، الألباني : صحيح الجامع الصغير (٢/ ٩٩٢ ح ٥٦٩٠).

(٢) القرني : عشرة ضوابط للصحوة الإسلامية (ص : ٢١- ٢٣).

(٣) أخرجه مسلم : الصحيح (كتاب العلم ، باب هلك المتنطعون ٤/ ٢٠٥٥ ح ٢٦٧٠).

(٤) القرضاوي : الصحوة الإسلامية بين الاختلاف المشروع والتفرق المذموم (ص : ٩٥- ٩٧).

وأفعالهم[١].

١٣ـ الإخلاص التام في العمل ، والاعتراف بالتقصير ، ودوام الاتصال مع الله سبحانه وتعالى : وبهذا تحفظ الدعوة والحركات الإسلامية ، فينبغي على العاملين في حقل الدعوة الإسلامية ألا يألوا جهدًا ، ولا يدخروا وقتًا في خدمة دعوة الله ، والخضوع والانقياد له تعالى ، فيبذلوا ويجاهدوا ويدعوا ، وفي المقابل لا يزكوا أنفسهم ، ولا يدَّعوا الكمال ، ولا يصيبهم العجب ، بل يتهموا أنفسهم دومًا بالنقص والتقصير ، فيجددوا توبتهم وإنابتهم لله تعالى ، قال سبحانه : ﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ ﴾ [النور :٢١].

وهكذا إذا كانت الجماعات الإسلامية سليمة الفطرة ، معترفة بتقصيرها في جنب الله ، فإن الشدائد تجملها ، وتوحد صفها في مواجهة أعداء الله ، وهذا ما ينبغي أن يكون عليه العاملون للإسلام دومًا : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ ﴾ [الصف :٤] .

*****

(١) النووي : شرح صحيح مسلم (١٦/ ٢٢٠).